رأي السيد الطباطبائي في التفسير العلمي من خلال بعض آيات الإعجاز

م.م. ريام عبد الرحمن عبد المهدي
وزاره التربية/مديرية تربية ديالى

AIIamah Tabatai-s opinion in scientific discourse (Interpretation) through selected Qur"anic uerses

BY
RIYAM ABDL RAHMAN ABDL MAHDI

ملخص:

تميّز الطباطبائي بكثرة علومه ومعارفه، وهذا ما أهّلهُ لمهمة تفسير القرآن الكريم، كغيره من المفسّرين، حيث اجتهد في دراسة القرآن الكريم وتفسير موضوعاته وآياته، فكان نتاج جهده كتاب تفسير الميزان، والذي صُنف بالمزايا العلمية والروح الموضوعية معاً، كما استند في فهمه للآيات القرآنية على مبادئ وأسس ثابتة سواء في القرآن الكريم أم السنة النبوية الشريفة، إضافةً إلى المأثور عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، لكونهم يمثلون حقيقة القرآن ويعرفون حقيقة ما تنزّل به من أحكام ومبادئ وقيم أخلاقية، كما عُرف عن الطباطبائي ميلهُ إلى التفكير في المسائل الكلية العائدة إلى الكون وقوانينه، فأحاط بالمناهج الفلسفية المختلفة، حيث كان مفكراً وفيلسوفاً وحكيماً، فهو لم يخرج عن دائرة البرهان في الأبحاث الفلسفية وابتعد عن الخلط بين المسائل، كما كان يحرص على البحث في كل فرع من العلوم حول مسائل ذلك العلم وموضوعاته وأحكامه دون الخلط بين العلوم، وقد جاء منهجه التفسيري معتمداً على تفسير الآيات بالآيات بأسلوب علمي واضح ودقيق.

ABSTRACT

Tabatabaei was distinguished by his abundant knowledge and knowledge, and this is what his family is to mission explanation Quran al kareem, like other commentators where strive in a study al Quran al kareem and explanation its subjects and his verses it was the result of his effort book explantion al Mizan, which is classified with advantages scientific and objective spirit together, as he based on his understanding Quranic verses on erim principles and foundations in Quran al kareem or of the honorable prophetic sunnah, addition to old about the imams of Ahl al Bayt peace on them because they are real AL Quran al kareem and they known for a fact and what its judgments,principles and moral values, as known about for Tabatabai to thinking with macro issues returning to the universe and surrounded the curricula philosophical, where he was thinking, and his approachcame, depending on explanation verses by verses in a manner scientitfic clear and precise.

المبحث الأول رأي السيد الطباطبائي في التفسير العلمي للقرآن الكريم:

مقدمة:

امتاز الطباطبائي بكثرة علومه ومعارفه، فانصرف إلى التأليف والتصنيف، ولعلّ أهم ما أنجزه تفسيره للقرآن الكريم، مُصراً أن يكون للإسلام حكم دفاعي في تطهير الأرض من الشرك والوثنية، كما أنّ منهجية الطباطبائي في التفسير تُظهر ما اعتمده من تفسير موضوعي من خلال تفسير القرآن بالقرآن، وإنّ التتبع لتفسير الميزان ولمنهج الطباطبائي في أي باب من أبوابه، سواء في باب التوحيد والإيمان، أم في باب العمل الصالح، أم في مجال القصص القرآني، يُظهر الانسجام التام في منهجه، خاصةً فيما اعتمده من تفسير موضوعي إلى جانب منهجه الأساسي الذي هو تفسير القرآن بالقرآن، وإنّ الطباطبائي فيما ارتضاه من طريقة في تفسير القرآن بالقرآن استطاع أن يقدم خدة جليلة للإسلام والمسلمين في ما كسف عنه من حقائق ومعارف قرآنية، هذا فضلاً عمّا قام به في تفسيره من ترجيح وموازنة بين الأقوال والآراء السابقة على تفسيره

المطلب الأول-الاتجاه التفسيري عند الطباطبائي في تفسير القرآن:

يُعتبر القرآن الكريم المصدر الأوّل للشريعة الإسلاميّة الحقّة، وهو الكتاب الأوحد الّذي يعدّ قطعي السند، وواصل إلى الأمّة الإسلامية بالتواتر اللفظي، وما ذلك إلّا لشدّة عناية واهتمام المسلمين بكتابهم المقدّس، وقد برز شدّة الاهتمام بأن دأب علماء الأمّة على تفسير كلام الله سبحانه، فتعدّدت التفاسير، وتضافرت الاتجاهات، على مرّ القرون، فظهرت أطياف التفسير تختلف من قرن إلى قرن، ومن عالم إلى آخر، حتّى كاد الداخل المبتدئ في علم التفسير يضيع لكثرة اتجاهات ومناهج التفسير الموجودة، بينما يجد فيها العالِم الخبير أنساً ورونقاً وجمالاً وعزّاً لهذا الكتاب، فيجد فيها منهله، ويروي فيها عطشه. واشتُهر السيد الطباطبائي كواحد من أبرز علماء الشيعة، فقد عُرف عنه إلمامهُ الكبير بعلوم الدين، ومعرفته الكبيرة بعلوم القرآن الكريم والفقه، فوجه اهتمامه إلى تفسير كتاب الله الكريم، فوضع كتاباً في التفسير، ما لبث أن احتل مكانة كبيرة بين كتب التفسير[١]، وغدا مقصد كل طالب للعم وراغب في تبيان معاني كلام الله تعالى ومقاصده، كما أوضح الطباطبائي أنّ القرآن الكريم هو حجة بالذات وسند لحجيّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فانطلق الطباطبائي في منهجه التفسيري إلى أنّهُ لا يمكن الوصول إلى معارف وأحكام القرآن الكريم بالاستغناء عن سنّة الأئمة المعصومين عليهم السلام[٢]، لأنّ آيات القرآن الكريم تنطق بحجيّتهم، وقد جعل لهم هذا المقام من النبي الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم في حديث الثقلين المتواتر، ما يؤكّد ضرورة التمسك

بحبلهم والاعتصام بهم، لقوله تعالى في كتابه الكريم {إنّما يُريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت يُطهّركم تطهيراً}[٣]، ويعتبر تفسير الميزان للعلّامة الطباطبائي من التفاسير المهمّة لكونه يعتمد المنهج الجامع.[٤]

أولاً–تعريف التفسير لغة واصطلاحاً:

أ- **تعريف التفسير في اللغة:** جاء تعريف التفسير في اللغة بأنّ التفسير من فَسَرَ[٥]، "وفسر الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بياء الشيء وإيضاحه"[٦]بمعنى أبان وكشف، ويُقال "فسّر" للدلالة على التكثير، تنزيلاً لما يعانيه المفسّر من كدّ الفكر لتحصيل المعاني الدقيقة.[٧]

أ- **تعريف التفسير في الاصطلاح:** وأمّا تعريف التفسير في الاصطلاح فهو إزاحة الإبهام عن اللفظ القرآني المشكل، أي المشكل في إفادة المعنى المقصود، أو الكشف عن الإبهام في الجُمل والكلمات القرآنية[٨]، وتوضيح مقاصدها وأهدافها، وتبرز الحاجة إلى التفسير إلى أهمية ومكانة القرآن الكريم لكونه الكتاب الأول للمسلمين، وأنزله الله نوراً وهدىً وتبياناً لكلّ شيء، وهو علم ما يُعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة[٩]، ومن ذلك قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا**﴾[١٠]،﴿**هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[٢] ،﴿**هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمِ يُوقِنُونَ**﴾[١١]، وإذا كان قد جاء ليكون بنفسه أحسن تفسيراً ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾[١٢].ومن ذلك قول الراغب في المفردات "فالتفسير إمّا أن يستعمل في غريب الألفاظ نحو: "البحيرة" و"السائبة" و"الوصيلة" أو في وجيز كلام يبيّن ويشرح، لقوله: ﴿**مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾[١٣] أو في كلام مضمّن بقصّة لا يمكن تصوّره إلّا بمعرفتها، نحو قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ**﴾[٩] وقوله: ﴿**وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا**﴾[١٤].

ثانياً–منهج التفسير بالرأي عند الطباطبائي: يرى الطباطبائي أنّ القرآن الكريم هو المصدر الأساسي للفكر الديني الإسلامي، وقد أعطى للسامعين حجيّة واعتبار ظواهر الألفاظ، وهذه الظواهر للآيات قد جعلت أقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المرحلة الثانية بعد القرآن مباشرة، وتُعتبر حجة كالآيات القرآنية، ويؤيّدهُ قول تعالى في كتابه الكريم {وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزل إليهم ولعلّهم يتفكّرون}[١٥]. وقد اعتمد السيّد الطباطبائي بأنّ التفسير بالرأي يحتمل وجوهاً متعدّدة، أهمّها تفسير المتشابه الّذي لا يعلمه إلّا الله، والتفسير المقرّر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تبعاً، والتفسير بأنّ مراد الله تعالى كذا على القطع من غير دليل، والتفسير بالاستحسان والهوى ومن دون الاستناد إلى نظر في أدلّة العربية ومقاصد الشريعة، وما لا بدّ منه من معرفة الناسخ والمنسوخ وسبب النزول، والقول بالقرآن بما يعلم أن الحقّ غيره، القول في القرآن بغير علم وتثبُّت، سواء علم أنّ الحقّ خلافه أم لا.[١٦] وعند العلّامة ليس المراد بالتفسير بالرأي النهي عن الاجتهاد المطلق في تفسير القرآن بل بأن يستقلّ المفسّر في تفسير القرآن بما عنده من الأسباب في فهم الكلام العربي، فيقيس كلامه تعالى بكلام الناس، فالتفسير بالرأي لا يخلو عن القول بغير علم، ومن هنا يظهر أيضاً أنّ ذلك يؤدّي إلى ظهور التنافي بين الآيات القرآنية من حيث إبطاله الترتيب المعنوي الموجود في مضامينها فيؤدّي إلى وقوع الآية في غير موقعها ووضع الكلمة في غير موضعها، ويلزمها تأويل بعض القرآن أو أكثر آياتها بصرفها عن ظاهرها.[١٧] فقد تجلّت مزايا تفسير الطباطبائي لكتابه الميزان من حيث أنّهُ جمع بين نمطي التفسير الموضوعي والترتيبيّ[١٨]، فقد فسَّر القرآن آية فآية وسورة فسورة، لكنّه إلى جنب ذلك، نراه يجمع الآيات المتناسبة بعضها مع بعض، ليبحث عن الموضوع الجامع بينها، كلّما مرّ بآية ذات هدف موضوعيّ، وكانت لها نظائر منبثّة في سائر القرآن، وأولى عنايته التامّة بجانب الوحدة الموضوعيّة السائدة في القرآن، كلّ سورة هي ذات هدف أو أهداف معيّنة، هي تشكّل بنيان السورة بالذّات، فلا تتمّ السورة إلّا عند اكتمال الهدف الموضوعيّ الّذي رامته السورة، ولذلك نجد السور تتفاوت في عدد آياتها.[١٩] كما عمد إلى الاستعانة بمنهج "تفسير القرآن بالقرآن"، فقد حقّق القرآن هذا الأمر وأوجده بعيان، إذ نراه يعتمد في "تفسيره" على القرآن ذاته، فيرى أنّ غير القرآن غير صالح لتفسير القرآن، بعد أن كان تبياناً لكلّ شيء فيا تُرى كيف يكون القرآن تبياناً لكلّ شيء ولا يكون تبياناً لنفسه؟!، ويقول العلّامة الطباطبائي: "الطريقة المرضيّة في التفسير هي أن تفسّر القرآن بالقرآن، ونشخّص المصاديق ونعرّفها بالخواص الّتي تعطيها الآيات[٢٠]، كما قال تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾[٢١] وحاشا القرآن أن يكون تبياناً لكلّ شيء ولا يكون تبياناً لنفسه"[٢] ويمكن القول بحقّ إنّ "الميزان في تفسير القرآن" هو من التفاسير الجامعة لكلّ مناهج وألوان التفسير حيث تجد أنّ السيّد الطباطبائي جمع إلى جانب منهج تفسير القرآن بالقرآن منهج التفسير الروائي والفلسفي والتاريخي والاجتماعي.[٢٢] ذكر العلماء والمفسّرون آراء متباينة حول مفاد روايات التفسير بالرأي، ومن بينها رأي العلّامة الطباطبائي وموقفه من هذا المنهج، فقد اعتبر السيّد الطباطبائي أنّ التفسير بالرأي يحتمل وجوهاً متعدّدة، أهمّها تفسير المتشابه

الّذي لا يعلمه إلّا الله، والتفسير المقرّر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تبعاً، فيردَّ إليه بأيّ طريق أمكن وإن كان ضعيفاً، وهذا يحصل فيما لو كان للمفسِّر ميل إلى نزعة أو مذهب فيتأوّل القرآن على رأيه ويصرفه عن المراد، فيجرّ شهادة القرآن لتقرير رأيه، والتفسير بأنّ مراد الله تعالى كذا على القطع من غير دليل، والتفسير بالاستحسان والهوى ومن دون الاستناد إلى نظر في أدلّة العربية ومقاصد الشريعة، وما لا بدّ منه من معرفة الناسخ والمنسوخ وسبب النزول، ومن ثمّ القول بالقرآن بما يعلم أن الحقّ غيره، والقول في القرآن بغير علم وتثبُّت، سواء علم أنّ الحقّ خلافه أم لا، ثمّ علّق عليها بقوله: "وربما أمكن إرجاع بعضها إلى بعض، وكيف كان فهي وجوه خالية عن الدليل، على أنّ بعضها ظاهر البطلان"[٢٣].

ثالثاً–تبيان معنى "الرأي" عند الطباطبائي: استعرض الطباطبائي النصوص الدالّة على النهي عن تفسير القرآن بالرأي قال: "قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "من فسّر القرآن برأيه الرأي هو الاعتقاد عن اجتهاد، وربما أطلق على القول عن الهوى والاستحسان، وكيف كان لما ورد قوله برأيه مع الإضافة إلى الضمير، عُلِم منه أن ليس المراد به النهي عن الاجتهاد المطلق في تفسير القرآن حتّى يكون بالملازمة أمراً بالاتّباع والاقتصار على ما ورد من الروايات في تفسير الآيات عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام على ما يراه أهل الحديث، بل الإضافة في قوله: "برأيه" تفيد معنى الاختصاص والانفراد والاستقلال بأن يستقلّ المفسّر في تفسير القرآن بما عنده من الأسباب في فهم الكلام العربي، فيقيس كلامه تعالى بكلام الناس، فإنّ قطعة من الكلام من أيّ متكلّم إذا ورد علينا لم نلبث دون أن نعمل فيه القواعد المعمولة في كشف المراد الكلامي ونحكم بذلك: إنّه أراد كذا، كما نجري عليه في الأقارير والشهادات وغيرهما، كلّ ذلك لكون بياننا مبنيّاً على ما نعلمه من اللغة ونعهده من مصاديق الكلمات حقيقة ومجازاً.[٢٤] والبيان القرآني غير جار هذا المجرى، بل هو كلام موصول بعضه ببعض في عين أنّه مفصول، ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض كما قاله الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فلا يكفي ما يتحصّل من آية واحدة بإعمال القواعد المقرّرة في العلوم المربوطة في انكشاف المعنى المراد منها، دون أن يتعاهد جميع الآيات المناسبة لها ويجتهد في التدبّر فيها كما يظهر من قوله تعالى:﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كثيراً}**[٢٥].

المطلب الثاني–نماذج من تفسير الآيات عند الطباطبائي:

أولاً–منهج الطباطبائي في التفسير بالاعتماد على الروايات المنقولة: يرى الطباطبائي –وهو من المحدثين–أن التفسير إنما هو بالروايات المنقولة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآل البيت عليهم السلام، وهي سواء في الحجية، وأما الروايات المنقولة عن الصحابة والتابعين فلا حجة فيها على مسلم، حيث يقول: "... ثم إن النبي الذي علمه الله القرآن وجعله معلماً لكتابه وعترته وأهل بيته –واستشهد لذلك–بما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي". ثم صدقه الله تعالى في علمهم بالقرآن، حيث قال: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا[26]﴾** وقال: **﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ[27]﴾**، ثم قال: "ووضعنا في ذيل البيانات متفرقات في أبحاث روائية نورد فيها ما تيسر لنا إيراده من الروايات المنقولة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة أهل البيت عليهم السلام وأما الروايات الواردة عن مفسري الصحابة والتابعين فإنها على ما فيها من الخلط والتناقض لا حجة فيها على مسلم"[٢٨]، وبذلك يتضح موقف هذا المعاصر الموافق للسابقين منهم، بل تراه يُصرح برد أقوال الصحابة في التفسير.[٢٩]

ثانياً–رأي الطباطبائي في التفسير المنهي عنه:إنّ التفسير بالرأي المنهيّ عنه أمر راجع إلى طريق الكشف دون المكشوف وبعبارة أُخرى إنّما نهى صلى الله عليه وآله وسلم عن تفهّم كلامه تعالى على نحو ما يتفهّم به كلام غيره وإن كان هذا النحو من التفهُّم ربما صادف الواقع، والدليل على ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الرواية الأُخرى: "من تكلّم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ"، فإنّ الحكم بالخطأ مع فرض الإصابة ليس إلّا لكون الخطأ في الطريق، وكذا قوله عليه السلام: "إن أصاب لم يؤجر"[٣٠].وليس اختلاف كلامه تعالى مع كلام غيره في نحو استعمال الألفاظ وسرد الجمل وإعمال الصناعات اللفظية، فإنّما هو كلام عربيّ روعي فيه جميع ما يراعى في كلام عربيّ، وقد قال تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[٣١]، وقال تعالى:﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾[٣٢]، وقال تعالى:﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٣٣]، وإنّما الاختلاف من جهة المراد والمصداق الّذي ينطبق عليه مفهوم الكلام.[٣٤] توضيح ذلك: إنّا من جهة تعلّق وجودنا بالطبيعة الجسمانية وقطوننا المعجّل في الدنيا المادّية، ألفنا من كلّ معنى مصداقه المادّي واعتدنا بالأجسام والجسمانيات، فإذا سمعنا كلام واحد من الناس حملناه على ما هو المعهود عندنا من المصداق والنظام الحاكم فيه، لعلمنا بأنّه لا يعني إلّا ذلك؛ لكونه مثلنا لا يشعر إلّا بذلك، وعند ذلك يعود النظام الحاكم في المصداق يحكم في المفهوم، فربما خصّص به العام أو عمّم به الخاصّ أو تصرّف في المفهوم

بأيّ تصرّف آخر، وهو الّذي نسمّيه بتصرّف القرائن العقلية غير اللفظية.[٣٥] مثال ذلك إنّا إذا سمعنا عزيزاً من أعزّتنا ذا سؤدد وثروة يقول: وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه، وتعقّلنا مفهوم الكلام ومعاني مفرداته حكمنا في مرحلة التطبيق على المصداق أنّ له أبنية محصورة حصينة تسع شيئاً كثيراً من المظروفات، فإنّ الخزانة هكذا تتّخذ إذا اتّخذت، وأنّ له فيها مقداراً وافراً من الذهب والفضّة والورق والأثاث والزينة والسلاح، فإنّ هذه الأمور هي الّتي يمكن أن تخزن عندنا وتحفظ حفظاً، وأمّا الأرض والسماء والبرّ والبحر والكوكب والإنسان فهي وإن كانت أشياء لكنّها لا تخزن ولا تتراكم، ولذلك نحكم بأنّ المراد من الشيء بعض من أفراده غير المحصورة، وكذا من الخزائن قليل من كثير، فقد عاد النظام الموجود في المصداق وهو أنّ كثيراً من الأشياء لا يخزن، وأنّ ما يختزن منها إنّما يختزن في بناء حصين مأمون عن الغيلة والغارة، أوجب تقييداً عجيباً في إطلاق مفهوم الشيء والخزائن.[٣٦] ثمّ إذا سمعنا الله تعالى يُنزل على رسوله قوله:﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ** ﴾[٣٧]، فإن لم ترق أذهاننا عن مستواها الساذج الأوّلي فسّرنا كلامه بعين ما فسّرنا به كلام الواحد من الناس، مع أنّه لا دليل لنا على ذلك البتّة فهو تفسير بما نراه من غير علم، وإن رقت أذهاننا عن ذلك قليلاً، وأذعنّا بأنّه تعالى لا يخزن المال وخاصّة إذا سمعناه تعالى يقول في ذيل الآية: ﴿**وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**﴾ وأيضاً: ﴿**وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾[٣٨]، حكمنا بأنّ المراد بالشيء الرزق من الخبز والماء، وأنّ المراد بنزوله نزول المطر لأنّا لا نشعر بشيء ينزل من السماء غير المطر، فاختزان كلّ شيء عند الله ثمّ نزوله بالقدر كناية عن اختزان المطر ونزوله لتهيئة المواد الغذائية. وهذا أيضاً تفسير بما نراه من غير علم؛ إذ لا مستند له إلّا أنّا لا نعلم شيئاً من السماء غير المطر، والّذي بأيدينا ها هنا عدم العلم دون العلم بالعدم، وإن تعالينا عن هذا المستوى أيضاً واجتنبنا ما فيه من القول في القرآن بغير علم وأبقينا الكلام على إطلاقه التامّ[٣٩]، وحكمنا أنّ قوله: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ**﴾.[٤٠]ويبيّن أمر الخلقة، غير أنّا لمّا كنّا لا نشكّ في أنّ ما نجده من الأشياء المتجدّدة بالخلقة كالإنسان والحيوان والنبات وغيرها لا تنزل من السماء، وإنّما تحدث حدوثاً في الأرض، حكمنا بأن قوله: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ**﴾ كناية عن مطاوعة الأشياء في وجودها لإرادة الله تعالى، وأنّ الإرادة بمنزلة مخزن يختزن فيه جميع الأشياء المخلوقة، وإنّما يخرج منه وينزل من عنده تعالى ما يتعلّق به مشيّته تعالى. وهذا أيضاً كما ترى تفسير للآية بما نراه من غير علم؛ إذ لا مستند لنا فيه سوى أنّا نجد الأشياء غير نازلة من عند الله بالمعنى الّذي نعهده من النزول ولا علم لنا بغيره.[٤١] وإذا تأمّلت ما وصفه الله تعالى في كتابه من أسماء ذاته وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله والقيامة وما يتعلّق بها وحكم أحكامه وملكاتها، وتأمّلت ما نرومه في تفسيرها من إعمال القرائن العقلية، وجدت أنّ ذلك كلّه من قبيل التفسير بالرأي من غير علم وتحريف لِكَلِمه عن مواضعه، من هنا يظهر أنّ التفسير بالرأي كما بيّناه لا يخلو عن القول بغير علم، ومن هنا يظهر أيضاً أنّ ذلك يؤدّي إلى ظهور التنافي بين الآيات القرآنية من حيث إبطاله الترتيب المعنوي الموجود في مضامينها فيؤدّي إلى وقوع الآية في غير موقعها ووضع الكلمة في غير موضعها. ويلزمها تأويل بعض القرآن أو أكثر آياتها بصرفها عن ظاهرها، كما يتأوّل المجبّرة آيات الاختيار، والمفوّضة آيات القدر، وغالب المذاهب في الإسلام لا يخلو عن التأوّل في الآيات القرآنية وهي الآيات الّتي لا يوافق ظاهرها مذهبهم، فيتشبّثون في ذلك بذيل التأويل استناداً إلى القرينة العقلية وهو قولهم إنّ الظاهر الفلاني قد ثبت خلافه عند العقل فيجب صرف الكلام عنه[٤٢].

المبحث الثاني: رأي السيد الطباطبائي في إعجاز القرآن الكريم:

المطلب الأول-مفهوم الإعجاز العلمي في التفسير عند الطباطبائي:

أولاً–تعريف الإعجاز في اللغة والاصطلاح:

أ– **تعريف الإعجاز في اللغة** إنّ لكلمة الإعجاز في اللغة العربية معاني كثيرة، منا الفوت، وجدان العجز، ويُقال أعجزه الأمر الفلاني أي فاته، ويُقال أعجزت زيداً أي وجدته عاجزاً، وجعلتهُ عاجزاً.

ب– **تعريف الإعجاز في الاصطلاح:** ورد تعريف الإعجاز في الاصطلاح بأنّهُ النقض للعادة، والعجزة هي أمر يعجز البشر متفرّقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله، أو هي أمر خارق للعادة وخارج عن حدود الأسباب المعروفة، وقال السيوطي: "أعلم أنّ المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدّي سالم عن المعارضة"[٤٣]، وفي فتح الباري لابن حجر قوله: "وسُمّيت المعجزة لعجز أن يأتي من يقع عندهم ذلك عن معارضتها"[٤٤]، ويقول المحقق الخوئي: "الإعجاز في الاصطلاح أن يأتي المدعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق نواميس الطبيعة ويعجز منه غيره، شاهداً على صدق دعواه"، لذلك كان الإعجاز من أهم مباحث علوم القرآن، وهو لا يُقصد لذاته بل غرضهُ إثبات النبوة والوحي، ولمّا كان الإعجاز من الشواهد الدالة على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقد ذهب جمهور من الفقهاء إلى اعتبار الإعجاز من ضروريات الانتماء إلى الإسلام، بحيث يُكفّر مُنكرهُ، وقد حدّد الطباطبائي مفهوم الإعجاز بأنّ كل ما أُوتي حظّاً من حس البيان وذوق

البلاغة، يفّرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي فرقاً كبيراً يمثّل الفرق الكبير بين مقدور الخالق ومقدور المخلوق، وها هما القرآن والحديث النبوي لا يزالان قائمين بينناالقد كان العلاّمة الطباطبائي مفكّراً ومفسّراً وفيلسوفاً وحكيماً، ولم يكن ليمرّ على المطالب العلمية بسهولة، فإذا لم يصل إلى عمق المطلب ويكشف جميع جوانبه لم يكن يرفع عنه أبداً، إذ كان ميّالاً بفطرته إلى التفكير في المسائل الكليّة العادة إلى الكون وقوانينه فأحاط بالمناهج الفلسفية المختلفة، ولم يكن يخرج عن دائرة البرهان في الأبحاث الفلسفية، ولم يخلط بين المسائل الفلسفية والمسائل الشهودية والعرفانية والذوقية، وكان يحرص كثيراً أن ينحصر البحث في كل فرع من العلوم حول مسائل ذلك العلم وموضوعاته وأحكامه دون الخلط بين العلوم، وكان السيد الطباطبائي مفكّراً كبيراً وكان لتفكيره أبعاد مختلفة، في التفسير والفلسفة كما في العرفان والأخلاق، وبلغ القمّة في دراسة العرفان النظري ولكنّهُ ضمّ إليه العرفان العملي بتهذيب النفس والتقوى، فكان جامعاً بين العلم والعمل، فقد كان ضليعاً بالعلوم النظرية في الوقت نفسه الذي كان حريصاً على مراقبة نفسه وتربية طلابه، أما بالنسبة لمنهجه التفسيري، فقد اعتمد منهج تفسير الآيات بالآيات.[٤٥] وحددّ السيد الطباطبائي أنّ لكلام الله تعالى جانبان، جانب بشري وهو صدوره بلغتهم ليتيسّر للناس فهمه، وجانباً إلهياً وهو عدم إمكان البشر الإتيان بمثل هذا الكلام رغم توفر مادته اللغوية بين أيديهم، حيث ستبوء كل محاولاتهم الفردية والجماعية بالفشل، فالمتيسّر للبشر هو فهمه، والمتعذّر عليهم هو الإتيان بمثله، مهما ارتقت قرائحهم الشعرية والبلاغية، ولم يكن الإعجاز من مبتكرات علم الكلام، بل طرحهُ القرآن بقوة وثقة في فترة الدعة المكية، ردّاً على حملة المكيين وتشويههم ضدّ دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، للتشكيك بنبوته والتقليل من أهمية كلام الوحي وتأكيد اعتياديته وإمكان الإتيان به.[٤٦]

ثانياً–نماذج من آيات الإعجاز عند الطباطبائي:ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة مختلفة مكية ومدنية تدلّ جميعها على أنّ القرآن الكريم معجزة خارقة، ومن ذلك قوله تعالى: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله}، وهو استدلال على كون القرآن الكريم معجزة بالتحدي على إتيان سورة نظيرة سورة من مثل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لا إنّه استدلال على النبوة مستقيماً وبلا واسطة، والدليل عليه قوله تعالى في أولها { وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا}، ولم يقل وإن كنتم في ريب من رسالة عبدنا، فجميع التحديات الواقعة في القرآن نحو استدلال على كون القرآن معجزة خارقة من عند الله سبحانه وتعالى.[٤٧]والآيات المشتملة على التحدي مختلفة في العموم والخصوص، ومن أعمها تحدياً قوله تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً}[٤٨]، والآية مكية وفيها نوع من عموم التحدي ما لا يرتاب فيه ذو مسكة، فلو كان التحدي ببلاغة بيان القرآن وجزالة أسلوبه فقط لم يتعد التحدي قوماً خاصاً، وهم العرب العرباء من الجاهليين والمخضرمين قبل اختلاط اللسان وفساده، وقد قرع بالآية أسماع الإنس والجن، وكذا غير البلغة والجزالة من كل صفة خاصة اشتمل عليها القرآن كالمعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة والأحكام التشريعية والأخبار المغيبة ومعارف أخرى لم يكشف البشر حين النزول عن وجهها النقاب إلى غير ذلك، كل واحد منها مما يعرفهُ بعض الثقلين دون جميعهم، فإطلاق التحدي على الثقلين ليس إلاّ في جميع ما يمكن فيه التفاضل في الصفات.[٤٩] ويُشير الطباطبائي إلى أنّ مكيّة آية التحي، تعني أنّ صدور التحدي كان في وقت لم يكتمل فيه القرآن بين الناس، ما يدلُّ على أن التحدّي لم يكن منصبّاً على الإتيان بمقدار خاص من الآيات، بل على الإتيان بما يماثل القرآن الكريم ويشبههُ في وجوه بيانه ومعارفه ولغته، أي في نصيّته الحاوية للتركيب اللفظي وللمعنى المشتمل على الآداب والتشريع والقصص والأمثال، وفي ذلك إشارة إلى أنّ التفاوت بين القول القرآني وقول سائر البشر ليس في الدرجة، بل هو في النوع، الذي يُعجز الناس عن الإتيان بمثله، حتى في القدر الأدنى منه.[٥٠] فالقرآن الكريم ليس كمثله بيان، لأنّهُ كلام من ليس كمثله شيء، وكلام الملوك ملوم الكلام، والفارق بين الحديث والقرآن على مستوى النظم، يؤكّد أنّ الإعجاز ليس صفة لكل كلام الله، أو لكل وحي، بل هو خاصية قرآنية رفعتهُ إلى مصاف أرقى الكلام وأعلاه، إلاّ أن التميز الكبير بين القرآن والسنة على مستوى النظم لم ينعكس على مستوى الدلالة، فالسنّة والقرآن يكادان يتساويان في مرتبة تحديد المعنى والكشف عن مراد الله. أمّا آيات التحدي بالإتيان بمثل عشر سور أو سورة من القرآن فهي، {أم يقولون افتراهُ فقل فأتوا بعشرة سور مثله}، مفتريات أي مختلفات، والآية الكريمة أيضاً {وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين}[٥١]، وقوله تعالى أيضاً {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا}[٥٢]، وقوله تعالى أيضاً {أم يقولون قُل افتراهُ قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين}.[٥٣]ويبيّن الطباطبائي أنّ السورة هي طائفة من القرآن، فإذا كانت واوها أصلاً فإمّا أن تُسمّى بسور المدينة وهو حائطها لأنّها طائفة من القرآن محدودة كالبلد المسور أو لأنّها محتوية على فنون من العلم كاحتواء سور المدينة على ما فيها، وإما ان تُسمّى بالسورة التي هي الرتبة لأنّ السورة بمنزلة المنازل والمراتب يترقى فيها القارئ، وهي أيضاً في أنفسها طوال وأوساط وقصار، أو لرفعة شأنها وجلالة

محلها في الدين، وإن جعلت واوها منقلبة عن همزة، فلأنّها قطعة وطائفة من القرآن كالسورة التي هي البقية من الشيء والفضلة منه، وقد جاءت آيات التحدي بالسورة، للرد على دعوى الافتراء وعلى الشك في حقيقة ما نُزل على نبي الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كما أنّ الإعجاز يتعلّق بمقدار أقل سورة من القرآن.[٥٤]

المطلب الثاني-تبيان منهج السيد الطباطبائي في تفسير القرآن الكريم:

أولاً-تفسير القرآن بالقرآن عند الطباطبائي:تُعتبر طريقة تفسير القرآن بالقرآن من أقدم الطرق في تفسير القرآن، وهي إحدى أقسام المنهج النقلي، لأنّ الأخير ينقسم إلى قسمين وهو تفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالرواية، وقد استحسن جميع المفسّرين والمتخصّصين إلّا ما شذّ هذه الطريقة في التفسير، واستفادوا منها في الكثير من الموارد، بل إنّ بعضهم اعتبرها من أفضل الطرق في التفسير، وأمّا المراد من تفسير القرآن بالقرآن، فإنّ هذا المنهج يعتمد على توضيح آيات القرآن بواسطة آيات أخرى وبيان مقصودها، وبعبارة أخرى تكون آيات القرآن بمثابة المصدر لتفسير آيات أخرى، وعرّفه بعضهم بأنّه: "مقابلة الآية بالآية وجعلها شاهداً لبعضها على الآخر ليستدلّ على هذه بهذه لمعرفة مراد الله تعالى من القرآن الكريم".[٥٥]وأمّا عن تاريخ منهج تفسير القرآن بالقرآن فيُعدُّ من أقدم طرق التفسير، ويرجع استخدامه إلى زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقد استخدمه الأئمّة عليهم السلام وبعض الصحابة والتابعين، وأبرز الأمثل على هذا سُئل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن معنى "الظلم" في الآية الكريمة:﴿ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾[٥٦] فأجاب صلى الله عليه وآله وسلم وبالاستناد إلى الآية﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[٣]بأنّ المقصود بالظلم في الآية الأولى هو الشرك المذكور في الآية الثانية.[٥٧] يتبيّن من خلال هذا الحديث والأحاديث المشابهة أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم استخدم هذا المنهج في التفسير، فإنّه صلى الله عليه وآله وسلم قام بتعليم أتباعه عمليّاً على استخدامه، واستنتج الإمام عليّ عليه السلام من خلال الآيتين﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾[٥٨] ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾[٥٩]بأنّ أقلّ مدّة للحمل هي ستّة أشهر، باعتبار أنّ مدّة الرضاع سنتين كما تشير الآية الأولى، ومدّة الحمل والرضاع معاً ثلاثون شهراً[٦٠] كما تشير الآية الثانية، والجمع بينهما يقتضي كون أقلّ الحمل ستّة أشهر، وهذا نوع من تفسير القرآن بالقرآن، وقد استخدم مفسّرو الشيعة هذا المنهج بعد ذلك مع ظهور تفاسير مثل التبيان للشيخ الطوسي ومجمع البيان للشيخ الطبرسي، وكذلك مفسّرو أهل السنّة، وقد ذكر العلّامة المجلسيّ في كتابه بحار الأنوار الآيات الّتي تتعلّق بموضوع معيّن في بداية كلّ فصل، وهذا يعني أنّه استفاد من الطريقة الموضوعية في تفسير القرآن بالقرآن، وقد حظي هذا المنهج باهتمام واسع خاصّةً عند المفسّرين في القرن الأخير، كما يتّضح ذلك في تفسير الميزان للعلّامة الطباطبائي، وآلاء الرحمن للشيخ البلاغي. كما أوضح الطباطبائي في كتابه "الشيعة في الإسلام" أنّ القرآن الكريم هو حجة بالذات وسند لحجيّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيما عُرض له من تفسير، لقوله تعالى {لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة}، مبيّناً أنّه إذا لم تكن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم حجيّة فيما يأتي به عن الله تعالى، فبما تكون معنى هذه الآية وقد تمّ توضيح بما فيه الكفاية ما يرمي إليه الطباطبائي من ذلك، وأسلوبه في التفسير، فهو قد تميّز في منهجه كونه سلك سبيل تفسير القرآن بالقرآن كما بيّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فذلك إنّما كان من الطباطبائي بهدف البحث في الفضاء القرآني دون سواه لاكتشاف الحقائق والمعارف القرآنية، وبرأيه لو أنّ المفسّرين الذين سبقوه إلى هذه المهمة سلكوا هذا المسلك لاستبان لهم الكثير من أبكار الحقائق القرآنية، ولكنّهم سلكوا مسالك شتى، فانتهى الأمر بهم إلى أن يكونوا أسرى مناهج الكلام والفلسفة والتاريخ والرواية، وما إلى ذلك ممّا معهود في كتب المفسرين.[٦١] فقد ركّز الطباطبائي في منهجه على تفسير القرآن بالقرآن، واعتمد باتباعه هذا المنهج على عدّة أدلّة للاستدلال على جواز ولزوم هذا التفسير، من القرآن والسنّة والسيرة ومنها:

١- **الدليل القرآني:** لقوله تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾[٦٢]، واستدلّ العلّامة الطباطبائي قدس سره بهذه الآية على تفسير القرآن بالقرآن فقال: "وحاشا أن يكون القرآن تبياناً لكلّ شيء ولا يكون تبياناً لنفسه"[٦٣]، وقوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا**﴾[٦٤]، والعلّامة الطباطبائي قدس سره عند استدلاله بهذه الآية: "كيف يكون القرآن هدى وبيّنة وفرقاناً ونوراً مبيناً للناس في جميع ما يحتاجون إليه ولا يكفيهم في احتياجهم إليه وهو أشدّ الاحتياج"[٦٥].قوله تعالى:﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾[٦٦]، فقد قسّمت هذه الآية آيات القرآن إلى مجموعتين محكمات ومتشابهات، وكلمة "المحكم" من "الإحكام" بمعنى "المنع"، ولهذا يقال للمواضيع الثابتة القويّة محكمة، لأنّها تمنع عن نفسها عوامل الزوال، كما أنّ كلّ قول واضح وصريح لا يعتريه أيّ خلاف يقال له "قولٌ محكم"، وعليه فإنّ الآيات المحكمة هي الآيات ذات المفاهيم الواضحة والّتي لا مجال للخلاف والجدل حولها.[٦٧] أمّا الآيات المتشابهة فهي الآيات ذات المعنى المعقّد، أو الّتي تحتمل معاني متعدّدة، والّتي لا يتّضح معناها المقصود إلّا في ضوء الآيات

المحكمة. وقد أطلق على الآيات المحكمة "أمُّ الكتاب" أي هي الأصل والمرجع للآيات الأخرى، وبعبارة أخرى: لا بُدّ من إرجاع الآيات المتشابهات إلى المحكمات لكي يتّضح معناها، وهذه الطريقة هي إحدى أنواع تفسير القرآن بالقرآن، وإنّ تكرار الآيات يستلزم هذه الطريقة في التفسير: لأنّه لكي نفهم بعض الآيات لا بدّ من مراجعة الآيات المشابهة، فقد جاء ذكر قصّة النبيّ موسى عليه السلام وفرعون في سور: الأعراف: ١٠٥. ١٣٦، طه: ٩. ٩٨، الشعراء: ١٠. ٦٧، النمل، ولا يمكن تفسير هذه الآيات ورفع الإبهام عنها ما لم يتمّ مراجعة هذه السور بآياتها المتعلّقة بموضوع النبيّ موسى عليه السلام وفرعون وإلّا فإنّه قد يؤدّي إلى وقوع المفسِّر في أخطاء.[٦٨]

٢-**الدليل الروائي**يمكن الاستدلال بالسنّة على مطلوبيّة تفسير القرآن بالقرآن من جهتين، الأولى السنّة العمليّة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، حيث استخدموا هذه الطريقة عمليّاً، والأحاديث الخاصّة الّتي أشارت إلى هذا الأمر، ومنها ما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم: "إنّ القرآن ليصدّق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض"[٦٩]، وقول الإمام عليّ عليه السلام: "وكتاب الله بين أظهركم ناطق لا يعي لسانه، وبيت لا تُهدم أركانه، وعزّ لا تهزم أعوانه كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبه عن الله"[٧٠].

٣-**الدليل العقلي**من أجل فهم أيّ كلام لا بُدّ من مراعاة القرائن الموجودة فيه، فإذا جاء ذكر أحد المطالب بصورة مطلقة وعامّة، وفي مكان آخر بصورة مقيّدة وخاصّة، فلا بدّ من النظر إلى الكلام بصورة كلّية باعتباره مجموعة كاملة، وهذه هي طريقة العقلاء في فهم أيّ كلام، والقرآن الكريم غير مُستثنى، من هذه القاعدة، وهذا هو نفس الشيء الّذي يُعرف باسم تفسير القرآن بالقرآن، يعني الاستفادة من بعض الآيات كقرائن لفهم وتفسير آيات أخرى، والشارع المقدّس لم يمنع من هذه الطريقة العقلية، بل قام بتأييدها طبقاً للأحاديث السابقة، وعند مراجعة طريقة الأئمّة عليه السلام والصحابة والتابعين ومفسّري القرآن على طول التاريخ يتبيّن أنّهم استخدموا هذه الطريقة، أي الاستفادة من بعض الآيات في فهم آيات أخرى. ومن خلال استمرار طريقتهم هذه نستدلّ على جواز هذا المنهج بالإضافة إلى عدم وجود منع من الشارع. وأمّا عن حجيّة ظواهر القرآن الكريم فإنّ تفسير القرآن الكريم يتوقّف على بعض المسلّمات ومنها حجّية ظواهر القرآن، حيث يمكن للمفسِّر أن يستدلّ بظواهره، والمراد من ظاهر القرآن الكريم هو المعنى الّذي يفهمه العارف باللغة العربية بموجب القوانين الثابتة عند أهل العرف وأبناء اللغة من اللفظ، ومذهب المشهور من علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام حجيّة ظواهر القرآن الكريم، فكان العلاّمة الطباطبائي أحد المهتمين بحجية ظاهر القرآن الكريم في الاتجاه التفسيري، واستدلّ من خلال ذبك على أنّ القرآن الكريم أُنزل بلسانٍ عربي مبين، وأنّ القرآن معجزة الإسلام الخالدة، وقد تحدّى الباري عزّ وجلّ المشركين على الإتيان بسورة من مثله، ولا معنى للتحدّي إلّا إذا فرض أنّ الّذين تحدّاهم القرآن كانوا يفهمون معانيه من خلال ظواهره.[٧١] كما اتجّه العلاّمة الطباطبائي في تفسيره إلى الاعتماد على حديث الثقلين، والقاضي بضرورة التمسّك بالقرآن الكريم والعترة، ومعنى التمسّك بالقرآن ليس مجرّد الاعتقاد بأنّه قد أُنزل من عند الله تعالى، بل الأخذ به والعمل بما فيه من أوامر ونواهي والاستناد إليه في كلّ اعتقاد أو قول أو فعل، ومن ثمّ تبيان روايات العرض على القرآن، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إنّ على كلّ حقٍّ حقيقة، وعلى كلّ صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه"[٧٢]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: "كلّ شيء مردود إلى الكتاب والسنّة، وكلّ حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف"[٧٣] فإنّ أخبار العرض على القرآن خير شاهد على إمكان فهم معانيه.[٧٤] وقد استدلّ الإمام الطباطبائي على عدم حجّية ظواهر القرآن الكريم بإنّ فهم القرآن مختصّ بأهله، وهم المخاطبون الحقيقيّون به، وهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام، وإنّ القرآن الكريم يحتوي على مضامين عالية وعميقة لا يفهمها إلّا الراسخون في العلم، ولا تنالها الأفكار العادية للناس، والقرآن الكريم يشتمل على آيات متشابهة وهو ما يؤدّي إلى المنع عن اتباع ظواهر الكتاب، مع العلم بوجود مخصِّصات ومقيّدات لكثير من ظواهر القرآن الكريم ممّا يعني عدم إمكانيّة التمسّك بالظواهر القرآنية.[٧٥] كما أنّ المقصود من اختصاص فهم القرآن بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليه السلام، وأنّهم المخاطبون الحقيقيّون هو الفهم الكامل للقرآن أعمّ من المحكم والمتشابه، والمنع من الاستقلال بالفتوى دون مراجعة الروايات، وأمّا بعد مراجعة القرائن النقلية، أو بعد البحث وعدم العثور على روايات معتبرة، فلا يوجد مانع من الأخذ بظواهر القرآن الكريم، إضافة إلى ذلك فإنّ الروايات نفسها قد أرجعتنا إلى القرآن والاستدلال به، كما في رواية عبد الأعلى مولى آل سام، قلتُ لأبي عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: عثرت فانقطع ظفري، فجعلت على إصبعي مرارة، فكيف أصنع بالوضوء؟ قال عليه السلام: "يُعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عزّ وجلّ، قال الله تعالى:﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[٧٦]امسح عليه"[٧٧]، ولا يوجد تعارض بين وجود مضامين عالية وصعبة الفهم في القرآن، والرجوع إلى الظواهر الواضحة والاستدلال. [٧٨]كما إنّ ظواهر القرآن ليست من المتشابهات، أي إنّ المقصود من المتشابهات هنا هو الآيات المجملة،

ولكن ظواهر القرآن ليست مجملة ولا متشابهة، وإنّ الأخذ بظواهر القرآن يكون بعد مراجعة المخصِّصات والمقيِّدات والروايات الأخرى، وعندها ينحلّ العلم الإجمالي ويرتفع حينئذ المانع من الأخذ بالظواهر، وبدأ منهج تفسير القرآن بالقرآن منذ عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهناك نماذج متعدّدة في روايات أهل البيت عليهم السلام تشير إلى استعمالهم هذا المنهج، وقد استفاد الصحابة والتابعون من هذا المنهج أيضاً، وإنّ أهميّة هذا المنهج تكمن في الاستفادة من الآيات والاستعانة بها في تفسير آيات أخرى من القرآن، وهذا الأمر يعتبر ضرورياً في كلّ من التفسير الموضوعي والترتيبي لكي يتبيّن مقصود الآيات بشكلٍ واضح.[٧٩] كما كُتبت تفاسير متعدّدة على أساس تفسير القرآن بالقرآن على امتداد التأريخ منها في عصرنا الحاضر تفسير الميزان، بل بعضهم اعتبره من أفضل المناهج في التفسير، واستدلّ الموافقون على هذا المنهج بالآيات والروايات وبناء العقلاء وأثبتوا جواز ومطلوبية هذه الطريقة في التفسير، كما استدلّ القائلون بتفسير القرآن بالقرآن بمضامين بعض الآيات مثل ما دلّ على أنّ القرآن تبيان، القرآن نور، ولزوم التدبّر في القرآن[٨٠]، وظاهر القرآن حجّة فلا يوجد إشكال على تفسير القرآن بالقرآن من هذه الناحية، بالإضافة إلى عدم تماميّة أدلّة الأخباريين على منع حجيّة ظاهر القرآن، على فرض ثبوت هذه النسبة إليهم.[٨١]

الخاتمة:

نستنتج مما ورد ما يلي:

١- جاءت الحاجة إلى علم التفسير كون القرآن الكريم جاء تشريعاً للأصول والمباني، وأَجْمَلَ في البيان إيكالاً إلى تبيين النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم تفاصيل ما نُزّل إليهم.

٢- غزارة أحاديث أهل البيت عليهم السلام حول تفسير القرآن الكريم وتسهيل معانيه للناس وتبسيطها، ومن ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام: "إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نزلت عليه الصلاة ولم يُسمَّ لهم ثلاثاً، ولا أربعاً، حتّى كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الّذي فسّر لهم ذلك".

٣- احتواء القرآن على معانٍ دقيقة ومفاهيم رقيقة، مثل أسرار الخليقة والوجود وصفاته تعالى، وهي فوق مستوى البشرية آنذاك، ليقوم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بتبيينها وشرح تفاصيلها.

٤- اشتمال القرآن على بيان حوادث غابرة وأمم خالية، جاء ذكرها لأجل العظة والاعتبار إلى جنب عادات جاهلية كانت معاصرة، عارضها وشدّد النكير عليها، مثل نهيه عن دخول البيوت من ظهورها، ومسألة النسيء، فقطعها من جذورها، وكل هذه الأمور جاءت مجملة بحاجة إلى شرح وبيان لا تتمّ إلّا من خلال التفسير بالمأثور.

٥- جاء في القرآن الكريم كلمات عربية غريبة صعبة الفهم على عامة الناس وهي على أفصح وأبلغ وجه، فكانت بحاجة إلى شرح وبيان وتفسير، ولهذا عمد السيد الطباطبائي إلى توضيح معاني القرآن الكريم وتفسير آياته الكريمة.

٦- إنّ مفهوم الإعجاز في القرآن الكريم، وكما طرحهُ السيد الطباطبائي يدلُّ على أنّ لكلام الله تعالى جانباً بشريّاً وهو صدوره بلغتهم ليتيسّر للناس فهمه.

قائمة المصادر والمراجع العربية:

أولاً:قائمة المصادر العربية:

القرآن الكريم

١- البحراني، يوسف، الحدائق الناظرة في أحكام العترة الطاهرة، تحقيق: محمد تقيّ الأيرواني، دار جماعة المدرسين للطباعة والنشر والتوزيع، قم المقدسة، ١٤٢٩هـ، ط١، ج١.

٢- الحر العاملي، أبو جعفر محمد بن الحسن بن عليّ الحر العاملي، (ت:١١٠٤هـ/١٦٢٣م)، وسائل الشيعة، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، دار المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، قم المقدسة، ١٤٢٢هـ، ط٢، ج١.

٣- بن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني الوائلي، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحيق: شعيب الأرناؤوط، دار الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨م، ط١، ج١.

٤- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، دار إحياء الكب العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٧٦هـ، ط١، ج١.

٥- السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، ط١، ج٢.

٦- الصابوني، محمد بن عليّ، التبيان في علوم القرآن، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٠هـ، ط١.

٧- الطباطبائي، محمد حسين بن السيد محمد بن السيد محمد حسين الميرزا عليّ، الميزان في تفسير القرآن، دار الرسول الأعظم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٢هـ، ط٣.

٨- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي أبو الحسين، (ت: ٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٠م، ج٤.

٩- الكليني، محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، (ت: ٣٢٩هـ/٩٤١م)، كتاب الكافي، تحقيق: عليّ أكبر غفاري، دار مؤسسة الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٦م، ط٥، ج١.

١٠- الهندي، علاء الدين عليّ المتقّي بن حسام الدين الهندي، (ت: ٩٧٥م)، كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، دار مؤسسة الرسالة للطباعة والنش والتوزيع، بيروت، ١٣٩٩هـ، ط١، ج ١.

١١- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الإفريقي المصري أبو الفضل، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٠م، ط١، ج١١.

ثانياً قائمة المراجع العربية:

١- الآملي، عبد الله، دراسات في فكر الطباطبائي، سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي، دار مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٢م، ط١.

٢- الأمين، محسن، أعيان الشيعة، دار مؤسسة الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٨م، ط١، ج٢.

٣- الحيدري، كمال، العلاّمة الطباطبائي قُدّس سرّهُ-لمحات من سيرته الذاتية ومنهجه العلمي، دار مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة، بيروت، ١٩٩٨م، ط١.

٤- الخوئي أبو القاسم بن علي أكبر بن هاشم تاج الدين الموسوي الخوئي، (ت: ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، البيان في تفسير القرآن، دار مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية للطباعة والنشر والتوزيع، النجف الأشرف، ٢٠١١م، ط٢.

٥- الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، دار مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٠م، ط١.

٦- الزرقاني، محمد، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٦م، ط١، ج٢.

٧- السبحاني، جعفر المناهج التفسيرية في علوم القرآن، دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢٦هـ، ط٣.

٨- الطباطبائي، محمد حسين، الشيعة في الإسلام، دار الأمل للطباعة والمشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨م، ط١.

٩- عبده، الشيخ محمد، شرح نهج البلاغة، دار الإفتاء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٨م، ط١، ج٢.

١٠- عتر، نور الدين، علوم القرآن الكريم، دار المصباح للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ، ط٦.

١١- فرد، عارف هنديجاني، منهج تفسير القرآن بالقرآن عند السيد الطباطبائي، ، ١٤٣٠هـ، ط١، ج١.

١٢- المجلسي، محمد باقر بن شريف، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، دار مؤسسة الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣م، ط١، ج٤٠.

ثالثاً الكتب الأجنبية المترجمة إلى اللغة العربية:

١- تسيهر، إجناس جولد، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة: محمد يوسف موسى وآخرون، ١٩٩٥م، ط١.

هوامش البحث

[1] الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، دار مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٠م، ط١، ص٩٠.

[2] فرد، عارف هنديجاني، منهج تفسير القرآن بالقرآن عند السيد الطباطبائي، دار الرسول الأعظم، النجف الأشرف، ١٤٣٠هـ، ط١، ج١، ص١٠٣.

[3] سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

[4] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار ١٩٨٨م، ط١، ج١، ص٩٥.

[٥] ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي أبو الحسين، (ت: ٣٩٥هـ١٩٩٠م، ج٤، ٤٠٠.

[٦] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٤، ص٤٠٢.

[٧] ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الإفريقي ١٩٩٠م، ط١، ج١١، ص١٢٨.

[٨] الكليني، محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، (ت: ٣٢٩هـ/٩٤١م ١٩٨٦، ط٥، ج١، ص٢٨٦.

[٩] الزركشي، بدر الدين محمد بن ، ١٣٧٦هـ، ط١، ج١، ص١٣.

[١٠] سورة النساء، الآية: ١٧٤.

[١١] سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.

[١٢] سورة الفرقان، الآية: ٣٣.

[١٣] سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

[١٤] سورة التوبة، الآية: ٣٧.

[١٥] سورة النحل، الآية: ٤٤.

[١٦] الطباطبائي، محمد حسين، الشيعة في الإسلام، دار الأمل للطباعة والمشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨م، ط١، ص٧٧.

[١٧] البحراني، يوسف، الحدائق الناظرة في أحكام العترة الطاهرة، قم المقدسة، ١٤٢٩هـ، ط١، ج١، ص٢٩.

[١٨] الكليني، كتاب الكافي، ج١، ص٢٤٤.

[١٩] السبحاني، جعفر المناهج التفسيرية في علوم القرآن، دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢٦هـ، ط٣، ص٦٥.

[٢٠] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ص٥٣.

[٢١] سورة النحل، الآية: ٨٩.

[٢٢] الآملي، عبد الله، دراسات في فكر الطباطبائي، سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي، ، ٢٠١٢م، ط١، ص٩٧.

[٢٣] السبحاني، جعفر المناهج التفسيرية في علوم القرآن، ص٧٠.

[٢٤] الحيدري، كمال، العلاّمة الطباطبائي قُدّس سرّهُ–لمحات من سيرته الذاتية ومنهجه العلمي، بيروت، ١٩٩٨م، ط١، ص٥٥.

[٢٥] سورة النساء، الآية: ٨٢.

[26] سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

[27] سورة الواقعة، الآية: ٧٧-٧٩.

[٢٨] الطباطبائي، محمد حسين بن السيد محمد بن السيد محمد حسين الميرزا عليّ ١٤١٢هـ، ط٣، ج١، ص١٢.

[٢٩] الأمين، محسن، أعيان الشيعة، دار مؤسسة الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٨م، ط١، ج٢، ص٧٦.

[٣٠] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ص٧٦.

[٣١] سورة إبراهيم، الآية: ٤.

[٣٢] سورة النحل، الآية: ١٠٣.

[٣٣] سورة الزخرف، الآية: ٣.

[٣٤] الحيدري، كمال، العلاّمة الطباطبائي قُدّس سرّهُ–لمحات من سيرته الذاتية ومنهجه العلمي، ص٧٧.

[٣٥] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ص١٢٢.

[٣٦] الآملي، عبد الله، دراسات في فكر الطباطبائي، سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي، ص١٠٠.

[٣٧] سورة الحجر، الآية: ٢١.

[٣٨] سورة الآتية، الآية: ٥.

[٣٩] الحر العاملي، وسائل الشيعة، ص١١٥.

[٤٠] الحيدري، كمال، العلاّمة الطباطبائي قُدّس سرّهُ–لمحات من سيرته الذاتية ومنهجه العلمي، ص١١٢.

[٤١] عباس، صافي، محمد حسين الطباطبائي مفسراً وفيلسوفاً، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢م، ط١، ص٩٦.

[٤٢] الطباطبائي، تفسير الميزان، ج٣، ص٧٨–ص٨١.

[٤٣] السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المندوب، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، ط١، ج٢، ص١١٦.

[٤٤] الخوئي أبو القاسم بن علي أكبر بن هاشم تاج الدين الموسوي الخوئي، (ت: ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ٢٠١١م، ط٢، ص٣٣.

[٤٥] عباس، صافي، محمد حسين الطباطبائي مفسراً وفيلسوفاً، ص٩٩.

[46] قانصوه، وجيه، النص الديني في الإسلام من التفسير إلى التلقي، دار الفارابي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١١م، ط١، ص٣٢١.

[47] الطباطبائي، تفسير الميزان، ج١، ص٥٩.

[48] سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

[49] الطباطبائي، تفسير الميزان، ج١، ص٦٠.

[50] الطباطبائي، تفسير الميزان، ج١، ص٥٦.

[51] سورة هود، الآية: ١٣.

[52] سورة البقرة، الآية: ٢٣-الآية: ٢٤.

[53] سورة يونس، الآية: ٣٨.

[54] قانصوه، وجيه، النص الديني في الإسلام من التفسير إلى التلقي، ص٣٢٥.

[55] سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

[56] سورة لقمان، الآية: ١٣.

[57] بن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني الوائلي، والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨م، ط١، ج١، ص٣٧٨.

[58] سورة لقمان، الآية: ١٤.

[59] سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

[60] المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج٤٠، ص١٨٠.

[61] المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج٤٠، ص١٩٠.

[62] سورة النحل، الآية: ٨٩.

[63] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص١٤-ص١٥.

[64] سورة النساء، الآية: ١٧٤.

[65] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص١٤.

[66] سورة آل عمران، الآية: ٧.

[67] تسيهر، إجناس جولد، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة: محمد يوسف موسى وآخرون ، ١٩٩٥م، ط١، ص٢٠٧.

[68] قانصوه، وجيه، النص الديني في الإسلام من التفسير إلى التلقي، ص٣٣٠.

[69] الهندي، علاء الدين عليّ المتقّي بن حسام الدين الهندي، (ت: ٩٧٥م)، والتوزيع، بيروت، ١٣٩٩هـ، ط١، ج ١، ص٦١٩.

[70] عبده، الشيخ محمد، شرح نهج البلاغة، دار الإفتاء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٨م، ط١، ج٢، ص١٦.

[71] المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج٤٠، ص٢١١.

[72] الكليني، كتاب الكافي، ج١، ص٦٩.

[73] الزرقاني، محمد، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٦م، ط١، ج٢، ص١٢.

[74] تسيهر، إجناس جولد، مذاهب التفسير الإسلامي، ص٢١٢.

[75] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٩٨.

[76] سورة الحج، الآية: ٧٨.

[77] الحر العاملي، أبو جعفر محمد بن الحسن بن عليّ الحر العاملي، (ت:١١٠٤هـ/١٦٢٣م)، وسائل الشيعة، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، دار المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، قم المقدسة، ١٤٢٢هـ، ط٢، ج١، ص٣٢٧.

[78] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص١٠٠.

[79] عتر، نور الدين، علوم القرآن الكريم، دار المصباح للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ، ط٦، ص٧٥.

[80] الصابوني، محمد بن عليّ، التبيان في علوم القرآن، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٠هـ، ط١، ص٧٥.

[81] الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج٢، ص١٣.